علي الكنز: المثقف والأكاديمي
سيرة ومسيرة

أباهر السقا

أستاذ مشارك جامعة بيرزيت في فلسطين

ومدير مركز دراسات التنمية

ملخص:

تقوم هذه المقالة على محورين: يسعى المحور الاول للمزج بين قراءة لشذرات من أعمال علي الكنز الكثيرة، وتحديداً حول تصوره عن الإنتاج المعرفي لعلماء الاجتماع العرب، وكذلك قراءة لبعض أعماله الأساسية ومنهجه. أما المحور الثاني فيهتم بعرض بعض آراء الكنز وبعض الممارسات بحكم المعرفة الشخصية به. ينبري هذه النص على تقديم قراءة تمزج ما بين قراءة أعماله وأبحاثه من جهة، ومعرفة الباحث الشخصية باعتباره صديقاً ومشرفاً له في أطروحة الدكتوراه في جامعة نانت بفرنسا.

عن السيرة والسيرورة

خسرت الساحة السوسيولوجية العربية العام المنصرم أحد أهم أقطابها المعاصرين. يعتبر علي الكنز [1] واحداً من أهم علماء الاجتماع العرب، ممن جمعوا

1. علي الكنز، 1946–2020 من مواليد سكيكدة – شرق الجزائر، عمل كأستاذ في الجزائر وتونس وأستاذ زائر في برينستون في الولايات المتحدة الأمريكية واستاذ في جامعة نانت بفرنسا من 1993–2016. ومدير خلية بحث بمركز البحث في الاقتصاد التطبيقي من أجل التنمية» بالجزائر العاصمة. ساهم في تأسيس «الجمعية العربية لعلم الاجتماع»، واشتغل برفقة سمير أمين في «مجلس التنمية والبحث في العلوم الاجتماعية بأفريقيا في داكار– السنغال. ترك علي الكنز العديد من المؤلفات المهمة، فضلا عن عشرات الأبحاث والأوراق العلمية من أبرز أعماله: مركب الحجار– عنابة (1987). «الجزائر والحداثة» (1989)، و«الصدفة والتاريخ» (1990)، و«حول الأزمة» (1993)، ، رواد الفكر (2008)، و«كتابات المنفى« (2009) والمشاركة في كتب جماعية اذكر منها: «الهوية وقضاياها في الوعي العربي المعاصر»، و»العلاقات العربية الأوروبية»، و«غرامشي في العالم العربي (1994)، العالم العربي (2003).

بين إنتاج المعرفة العلمية وبين الالتزام المجتمعي النقدي. ولد الكنز سنة 1946 في مدينة سكيكدة؛ تنقل الكنز بين الحقول المعرفية في حياته الأكاديمية من الفلسفة إلى علم الاجتماع، وتحديداً في مجالات علم الاجتماع الصناعي وعلم اجتماع العمل والتنمية وسوسيولوجيا المعرفة؛ مما أثر على انفتاح مقارباته المعرفية. كعالم اجتماع ملتزم سعى الكنز إلى التوفيق بين الاختيارات الابسيتمولوجية والمنهجية، ومحاولة تفسير الظواهر المدروسة وفق منظورات مختلفة مُجددة، وتجنب الانغلاق. وفيما يلي بعضاً من هذه الشذرات التي سيتناولها الباحث، وهي تمثل غيضاً من فيض أعماله.

أولا: الحوار عن علم اجتماع عربي أم علماء اجتماع عرب؟

انشغل الكنز كغيره من علماء الاجتماع العرب بوضعية العلوم الاجتماعية في الوطن العربي، وبمآل الجماعة العلمية العربية، وبتأصيل هذه العلوم ودورها في تقديم معرفة تلائم الواقع العربي، وتطوير أدواتها ومناهجها. كان علي الكنز يردد دائماً كما شرح في أكثر من مقالة له، أنه لا يوجد «علم اجتماع عربي» ولكن لدينا علماء اجتماع عرب؛ معتقداً أن ثمة تبعية لعلم الاجتماع العربي مثل تبعيتنا لاستيراد المصنع الغربي (الكنز، ص.100) وذلك إما تكراراً أو تقليداً. هذه الفكرة نجد صداها في أكثر من مقالة؛ وهي تتقاطع مع تصورات سمير أمين عن فكرة حضور «الآخر المهيمن»، باعتباره أساساً للمقاربات البحثية العربية، إما توافقاً أو تقليداً أو صراعاً. يرى الكنز أن علاقة البحاثة العرب بالأدوات المعرفية والمنهجية بالنظريات الغربية ما هي إلا علاقة ذرائعية/برغماتية، وهذا يعود لاستيرادها ولفصلها عن سياقاتها الاجتماعية التاريخية التي نشأت فيها، مما يؤدى إلى خلق ممارسات انتقائية يُسقط كلّ باحث ما يظهر له مناسباً من مفاهيم ونظريات على الظواهر الاجتماعية والإنسانية المحلية، ويُفضي ذلك إلى انعكاس النظريات الغربية في السياقات العربية. في أكثر من دراسة ومداخلة سواء تلك التي قدمت في بيروت أو تونس او القاهرة، كان علي يردد بأن لدينا علماء اجتماع عرب وسطاء يعانون من «الفقر النظري»، أي من فقر أدوات التحليل السوسيولوجى وليس فقرهم لمعرفة الأدوات السوسيولوجية. يُعلل ما سبق بفعل غياب معرفة البعض منهم بالسياقات

التي أنتجت المعرفة ضمن السياق الأوروبي، والمرتبطة بالسجالات الفكرية التي أدت إلى ولادة نظريات ونظريات مضادة، ويرى في هذا التوجه بمثابة التباس تاريخي يدفع ببعضهم لانتقائية التصورات التي يستخدمها بما يتلاءم مع بعض تصورات الحس المشترك (الكنز 100-105). وحسبه للخروج من هذا المأزق الابسيتمولجى يجب تأسيس تفكير ابستيمولوجي جديد يبعث براديغم معرفي جديد، يقوم على قواعد معرفية ومنهجية، تُمكننا من قراءة مختلف الظواهر الاِجتماعية التي يزخر بها الواقع الاِجتماعي العربي.

ثانيا: مدرسة معرفية تعددية ومنفتحة

لقد كان علي صلباً وعنيداً ولكنه لم يكن دوغماتياً- أو بتعبير آخر لم يكن قطعياً؛ ففي إحدى تشخيصاته عن التوجه العقدي «الدوغماتى» يقول الكنز عن بعض الزملاء «الدوغماتين» العرب وتعاملهم مع النظريات الغربية» واقتبس هنا «قد نجد ماركسي القاهرة أكثر قطعية من نظرائهم الباريسيين... وأتباع النظرية الوظيفية في الرباط أكثر تشددا من أصحابها في نيويورك». لقد كان الكنز ماركسيا منفتحاً، فلديه ماركسية تشبه ماركسية غرامشى لأستعير هنا تعبير الطاهر لبيب في دراسته عن «غرامشى عربيا». ونلمس هذا في كتاب الكنز وتحليله لأعمال غرامشى (Gramsci et les arabes.1994). ويتشارك علي الكنز بهذه المقاربة مع مقاربات مهدى عامل «حسن حمدان» (1936-1987) عن تمثلات دور المثقف العضوي؛ علما أنه قد نشأت صداقة بين عامل والكنز، خاصةً وأن عامل قد عمل أستاذاً في جامعة قسنطينة في شرق الجزائر؛ علاوةً على الانسجام الفكري بينهما. يتقاسم كلاهما فكرة التنظير للماركسية من الجنوب ولأجل الجنوب؛ وضرورة ربط الماركسية بميكانيزمات تحقق القطيعة مع الاستعمار والرأسمالية. ولذا كلاهما كان لديه ما يمكن تسميته بماركسية لينة وغير دوغمية. أي التعامل مع الماركسية كمنهجية وركيزة لفهم وتحليل الميكانيزمات البنيوية للمجتمعات العربية.

كان علي الماركسي يعيب على الماركسيين العرب تمثلهم للتحليل الطبقي الغربي، وتمثلات تلك الطبقات البرجوازية والفقيرة، واسقاطها بشكل ميكانيكي على السياقات العربية، سواء باعتبارها نماذج للتحليل كما لو كانت الصنافيات الاجتماعية الغربية

تتطابق مع نظيراتها إذا وجدت أصلاً في المجتمعات العربية، أو عبر تبريرهم لتأخر التحليل الطبقي تحت ادعاء عدم تبلور هذه الصنافات السوسيواقتصادية. لقد كتب علي مطولاً في ثمانينات القرن الماضي عن فشل هذا النموذج التحليلي وهو إذ يعي أن الصراع الطبقي هو المحرك للتاريخ، ولكن ينطلق من معطيات المجتمعات الاوربية، وفى كثير من الأحيان يجرى تحويل هذه الأداة التحليلية العلمية الصائبة إلى أيديولوجيا، وإلى دوغم يفضي ببعض الكتابات الماركسية التأويلية العربية إلى نقضيها، أي إلى تتبع المسارات التطورية (الكنز، حول الازمة، 54-60). وفي تحليلات أخرى، يسمي الكنز هذه المقاربات «بالماركسية الموضوعية» مستعيراً من تعبيرات عبد الله العروي أي تلك الأيديولوجيا التي سمحت للنظم الاشتراكية في سوريا ومصر والعراق والجزائر، بإنفاذ وهم إمكانية انتهاج اشتراكية علمية مجردة من ثقافتها الغربية، وتتوافق مع المجتمعات العربية وقيمها.

كما كان الكنز يعيب على بعض البحاثة العرب العقدين تعاليهم على الثقافة الإسلامية، ونجد هذا في كتاباته حول الدين والهوية، وفهمهم للثقافة الإسلامية، ودورها في التشكيل الهوياتى المجتمعي. علاوةً على أن الكنز كان مولعاً بالصوفية وبحلقات الذكر، وأجمل ما كان يطربه سماع تكبيرات العيد- فقد كان يطلب منى أن أسجل له أصوات تهليلات الأعياد الإسلامية كلما زرت فلسطين وعدت لفرنسا- وخاصة المشرقية منها بسبب موسيقية الإيقاع، وجاذبية المقامات العربية في هذا النمط من الغناء الديني، مقارنة بالجوهرانى الوظائفي المغاربي بشكل عام، والجزائري بشكل خاص المعمد بالطهرانية المالكية كما كان يقول. وعندما كان يمارس نقده لبعض انتاجات علماء الاجتماع العرب يصنفها كمقاربات المستشرقين عن «عودة المقدس»، التي يرى فيها بأنها فقط عبارة عن شكل جديد لأدلجة العلاقات الاجتماعية، أي تحليل وهمى غير ملموس عن الهوة بين دهرنة الدولة ظاهرياً، وبين الخطاب المجتمعي المنغمس في المقدس باعتباره مكون من مكوناته. وعلى ذكر الماركسية العربية كان لعلي تقارب شخصي ومعرفي مع المفكر سمير أمين، فهو وعلي الكنز يعتبرون من القلائل الذين اهتموا بتجسير العلاقات مع الأشقاء في افريقيا. وكان الكنز دائم الاهتمام بإنتاج المعرفة في بلدان الجنوب العالمي، وكان يردد دائماً في السنغال والهند ولبنان والجزائر ومصر، بضرورة الاستفادة

من تجارب الهند وآسيا وأميركا الجنوبية في العلوم الاجتماعية، ونقد المركزيانية الغربية لما يساهم في تعزيز السوسيولوجيا العربية والجنوبية واغنائها. كما كان علي يكره معطيي الدروس، سواء الذين ينطلقون من مركزياتهم الثقافية، أو أولئك الذين ينطلقون من فوقتيهم المعرفية بحكم السلطة المعرفية.

ثالثا: المثقف وعلاقته مع مجتمعه ونقمته على مثقفي البلاط

كان علي الكنز من أشد المدافعين عن التزام المثقف، ويظهر هذا في كتاباته المختلفة. فقد عاب على بعض الأكاديميين الجزائريين بُطء وقلة انخراطهم في الثورة المسلحة أثناء حرب التحرير الوطنية (El kenz, 1993: 34-35). وكان شديد الرفض «للتحولية»، وهي موقف رمادي للمثقف ابان حكم موسوليني في إيطاليا (حول الجزائر والعالم العربي. ص11). كما وكتب علي مطولاً عن انفصال بعض المثقفين وأعضاء الجماعة العلمية العربية عن الشعب، وكان يأخذ على بعضهم ليس فقط التعالي المعرفي وممارسة دور «الشيخ والمريد» بمنطق عبد الله حمودي (الشيخ والمريد، 2000)؛ ولكن أيضاً التعالي بالمعنى الإنساني الاجتماعي. فقد كان لخلفية علي السيوسيواقتصادية دور في قربه من الناس ومن الفئات الشعبية، فعلي ابن لعائلة سكيكدية متواضعة ومناضلة؛ اثنان من اخوته كانا ثائرين مناضلين في صفوف الثورة الجزائرية؛ وكان من أشد الناقمين على مظاهر التمَظْهر الاجتماعي؛ فكان متواضعاً، ويدعو دائماً إلى التواضع المعرفي، وإلى التواضع في اختيار أشكال التعبير عن الذات في الملبس والعيش.

عند النظر الى أعماله في تأريخ العلوم الاجتماعية، ينكشف لنا بوضوح أنه يرى أن منشأ أي علم لا يتطور إلا ضمن واقع ابستمولوجيى يحييه باستمرار جدلية المجابهة بين النظريات المتنوعة المتنافسة، والتي تغتني بتعرض بعضها بالبعض الآخر. ويشخص باقتدار التعارض بين السلطة الاجتماعية والعلوم الاجتماعية. حدد الكنز في أكثر من مقالة أن إحدى عوائق تطور العلوم الاجتماعية علاقتها مع السلطة السياسية، ولتتجاوز ذلك يجب تخليق حاضنة اجتماعية وسياسية تعمل على انفاذ التنوع والاختلاف وتنفلت من سطوة السلطات، وتوطين هذه العلوم وربطها بسياقاتها الاجتماعية. وكما هو

معروف فإن لعلي تجربةً فريدة مرتبطة بأرق انتاج المعرفة والمنع، فقد كتب باسم مستعار، وهي من الحالات التي يجب أن تدّرس للأجيال الجديدة، حين يضطر باحث إلى الكتابة باسم مستعار، ويعود ذلك إلى التضييق على الحريات الأكاديمية في زمن الراحل هوارى بومدين. فقد نشر علي دراسة له عن الاقتصاد الجزائري عام 1990، تحت اسم وهمي «الطاهر بن حورية»، تيمنناً باسم الحي الذي عاش فيه بسكيكدة. ولذا كان الكنز من أشد المناصرين لتوطين العلوم الاجتماعية في العالم العربي، وإلى ضرورة خلق بيئة سياسيّة واجتماعية منفتحة وحاضنة لها.

رابعا: منهج ونهج علي الكنز

في أكثر من كتاب ومن لقاء وبالتتبع لأبحاثه، سنجد أن الكنز كان يرتكز على الميدان/الحقل، ويوجه النقد ضد بعض الكتابات العربية المنشغلة سوسيولوجيا بالماكرو والمهملة للميكرو «المصغر». بالإضافة لنقده الدائم للغة الحشو؛ أي التباهي بالنعوت والمفردات التي تطبع الكتابة، وتعلو على حساب وضوح الفكرة. وكان علي ينتقد دائماً الباحثين عن القضايا الكبرى دون الاهتمام بالميدان، مرتكزاً على تجربته حيث أن علياً قام بعمل أطروحة دكتوراة عن مركب الحجار الصناعي، وهو من المركبات القليلة التي نشأت في أفريقيا، علاوةً على مركب حلوان بمصر، باعتبارها نماذج لتمثلات سياسات الدول في المنطقة العربية بعيد فترة الاستعمار. هذه الدراسة هي جزء من أطروحته للدكتوراه التي ناقشها في جامعة فرنسية، ونشرت في فرنسا عام 1987، تحت عنوان «التجربة الصناعية الجزائرية». لقد أرسى الكنز في دراسته المؤسِسَة عن مركب الحجار طريقة منهجية ملهمة عن دور الباحث وأهمية التواضع المعرفي، وصقل المعرفة الأكاديمية بالتمثلات المعيشية. إحدى هذه الدروس المنهجية التي يجب ان تدرس للأجيال الجديدة، هي أنه اعتمد عددا قليلا من المبحوثين أي خمسة أفرادا وعايشهم لمدة خمسة أعوام؛ مثلوا الخمسة نماذج مهنية، فارتكزت أطروحة الدكتوراه على مقابلات عميقة، ومعاينات لخمسة أشخاص، يمثلون لمدة خمس سنوات لفحص أثر السياق والتجربة والخبرة المهنية والتراتبيات الاقتصادية، والنماذج الإدارية، وتمثلات الأعمال، على تبدل علاقة الموظف في بيئة العمل. وهو نفس النموذج المرتبط بتقدير المقابلة المعمقة

كأداة ناجعة للسرديات الاجتماعية، والغوص بالتفاصيل لمعرفة التاريخ الاجتماعي والسياسي لبلد ما، وقضية ما. حيث كان لدى علي وزميله محفوظ بنون، مقابلات طويلة ومعمقة، امتدت لفترة طويلة اسفرت عن نشر «مذكرات عبد السلام بلعيد» وزير الصناعة الجزائري، إبان فترة هوارى بومدين، وقدم للقراء زوايا مجهولة من سياسات التصنيع وخبابا الحركة الوطنية الجزائرية.

كان علي الكنز قريباً من الناس، وملاصقاً لهم، وكان يقول لي دائماً أن احدى العناصر الملهمة في أعمال نجيب محفوظ هو مكوثه لساعات طويلة في المقاهي، الأمر الذي مكنه من معايشة وملاحظة الناس، ولذا كتب محفوظ ببصيرة بسبب قربه من الناس العاديين وخاصة البسطاء منهم. كان الكنز يرصد أحاديث الناس وملابسهم وتعبيراتهم الموسيقية، ويرى فيها مؤشرات ودلالات للتحليل السوسيولوجي العميق، ويتخذ من اليومي بكل تفاصيله ركائز له. وكان ينظر دائما للاهتمام بعلاقة الجماعة الاجتماعية «بعدوها الاجتماعي»؛ أي كان يعتقد بوجود عدو اجتماعي نقيض لتصورات ومصالح وأحلام جماعة اجتماعية محددة، يعمل هذا العدو المشخص بأن يصبح اهتمام المضطهد أو المقهور إلى مقارعة عدوه الاجتماعي، واستنهاض كل طاقات هذه الجماعة في الدفاع عن جماعتها وقضاياها وبغيابه- العدو- يخفت النضال وحتى قد يتلاشى الحضور بهذه الفكرة. كمثل تفسير الكنز لتراجع نجم وعطاء الشيخ إمام بعد موت السادات. من زاوية أخرى، احدى العناصر المنهجية المثيرة للتمعن، هي اهتمام الكنز بأدوات التحليل غير الكلاسيكية، كالتعبيرات الفنية، وايلائه أهمية للتعبيرات البصرية والسمعية في تحليلاته، على نحو نادرٍ مقارنة بجيله، فقد كان الكنز يتركز في تحليلاته على الأدب والشعر والموسيقي والمسرح، فتراه يستخدمها في تحليلاته، وينهل منها من خلال تمثلات القضايا المعبر عنها في أشعار أحمد فؤاد نجم والشيخ إمام، ومسرحيات دريد لحام وزياد الرحباني، وتصورات السينما الفلسطينية الخ. ولذا كان علي ينتمي إلى جيل من البحاثة وعلماء الاجتماع العرب الذين صقلوا معارفهم بقربهم من الناس، ومن دفاعهم عن قضايا مجتمعاتهم العربية. كان علي في القاهرة وبيروت يرتاد المقاهي، وله في المقاهي تحليلات مذهلة، ويمتلك عين سوسيولوجية خارقة، ترى اللامرئي وغير المنطوق، ويحولها في تحليلاته إلى منطوقة.

خامسا: الكنز واللغة

مثل الكثير من المثقفين والأكاديميين الجزائريين الذين ولدوا في نهاية الفترة الاستعمارية، تعلم علي باللغة الفرنسية، وكان يصف لغته العربية بـ «لغتي الثكلى»؛ حيث قرر الذهاب إلى مصر عام 1972 للتعرب، وأمضى فيها سنتين تعرف فيها على القاهرة وعلى مثقفي المشرق في حينه، وعلى الموسيقى، وبقي يسرد حكايات عن أستاذه ادوارد سبانخ المنحدر من يافا، وسهرات الشيخ إمام، وحوارات محمود أمين العالم وغالى شكري. عاد بعدها علي ليدرس بجامعة الجزائر العاصمة ويمزج بين الفرنسية والعربية لآخر أيامه فيها. (*Ecrits d'exile*. p.53) أما الثنائية اللغوية وتمثلاتها وآثارها على المعرفة والحضور الاجتماعي والتشرذم، فقد كانت في صلب كتاباته؛ فكتب الكنز عن اللغة في الجزائر، وعن علاقته معها كان يقول لي «أنا مع العربية وضد التعريب، الذى لا يأخذ بعين الاعتبار التنوع اللغوي للجزائر». يظهر هذا ملياً في نزعته إلى ترجمة ونشر أمهات الكتب في سلسة الأنيس التي حملت اسم ابنه –أنيس حبا بولده وبمولوده المعرفي– في سنوات الثمانينات. وكان يحرص أن يتم النشر بطريقة مبسطة، وفعلياً تم نشر جزء كبير من المؤسسين في الثقافة العربية الإسلامية ومن الإرث العالمي. ففي سنوات عطائه عمل الكنز عبر هذه السلسلة لتقريب العلم من الناس، عبر خلق مفهوم جديد لكتب بمتناول الناس– كتب جيب– سلسة ضمت عشرات الأسماء من الإرث العربي الإسلامي من الفارابي وابن طفيل وابن خلدون وابن بطوطة، برفقة المعاصرين مثل: محمد عبده وشكيب أرسلان، وجنباً إلى جنب مع دوركايم ولينتون وسبينوزا. وصدرت باللغتين دفاعاً عن اللغتين وعن الناطقين بكلتيهما في جزائر ما بعد الاستقلال. كما تظهر مساهماته من خلال الإشراف على تعريب وترجمة النصوص عبر المنظمة العربية للترجمة، حيث كان عضواً في لجنتها العلمية، وكذلك في توصيته لنقل بعض النصوص العربية إلى الفرنسية والانجليزية، وكان يردد دائما بأن الفرنسية «كغنيمة حرب» لنقل مثلما كان يقول كاتب ياسين.

أدرك الكنز معضلة اللغة في الجزائر، حيث تعتبر اللغة فيها احدى المعضلات الأساسية التي واجهت تساؤلات النخب الهوياتية أثناء الاستعمار وبعده؛ وقد ألقيت

على الكنز العديد من الاتهامات من تيارات ذات نزعات انفصالية ترى في الأمازيغية نقيضا للعربية، في حين كان يرى الكنز أن الأمازيغية هوية الجزائر، وكان مدافعاً عن الأصل الأمازيغي باعتباره أصيلاً وأصلانياً ومتأصلاً في المجتمع الجزائري، وبنفس الوقت كان يدافع عن اللغة العربية لغةً وفكراً وانتماءً. وقد عالج هذه السجالات في أكثر من بحث عندما كان يشخص الشرخ بين مهندسين مفرنسين، وعقائديين معربين (عن الازمة،1993). هذه السجالات أثرت بشكل كبير على تمثلات الناس للعلوم، وطرح ثنائيات الأصالة والحداثة والجواني والبراني، وعلاقة المعرفة بسياق الاستعمار وما بعد الاستعمار.

كان الكنز شديد الحرص على التشبيك بين الباحثين العرب، ويرفض ادعاءات بعض العرب المشارقة بالتفوق اللغوي المتخيل مقارنة بإنتاجات المغاربة، ويقول إن هذا كان في الماضي، وبنفس الوقت كان يقول لي ثمة مبالغة بزهو بعض المغاربة بكتاباتهم العميقة مقارنة بضعف انتاج المعرفة العلمية في المشرق اليوم، معتمداً على مقاربة بين تجربة تعريبه في القاهرة في السبعينات وتراجع الإنتاج المعرفي في المشرق.

سادسا: شذرات في التجربة والمنهج الانعكاسي

مارس الكنز السوسيولجيا الانعكاسية في كل تجربة حياتية ويخضع اليومي لهذه المساءلة. إحدى التجارب الانعكاسية التي كانت تتعدد عند الكنز بتعدد سياقات توظيفها الإبستمولوجية والسوسيولوجة، وتظهر في نماذجه المَوْضَعَة المُشَارِكَة l'objectivation participante والانعكاسية (Réflexive) العلمية، حيث كان الكنز يموضع ذاته السوسيولوجية مع ذاته المحللة. إحدى التجارب الانعكاسية المذهلة للكنز، والتي تستحضرني دائماً أنه في واحدة من حلقات البحث التي نظمت في جامعة نانت بفرنسا حيث كان علي الكنز أستاذاً فيها عام 1998، قامت دائرة علم الاجتماع -حيث كان الباحث أيضا يدرس فيها- بتنظيم سلسلة محاضرات سميت في حينها بـ «محاضرات كوليج دو فرانس المتنقلة»، ودُعي بيير بورديو P Bourdieu لجامعة نانت للمشاركة فيها، وعرضت أنا وثلاثة من زملائي أمامه مشاريعنا البحثية؛ وقدم بيير بورديو لي عدة ملاحظات عن المنهج والمقاربة النظرية وخاصة عن نموذجي

التحليلي «للدولة»، وقال لي في وقتها: «أن أفكر في أن نموذج الدولة حتى وان كان تحقيقه في شرط استعماري قد يوحى للباحث المستعمر ان مشروع الدولة قد يحل بعض الإشكالات الآنية، ولكن يجب أخذ نموذج الدولة إلى التحليل السوسيولوجى، وإلى ماهية الدولة باعتبارها مجمعاً للرساميل ومنتجاً لها».

في اليوم التالي للقاء قال لي علي الكنز : استكمالاً لملاحظات بيير بورديو أمس، بودى أن أقص عليك تجربتي مع الدولة؛ فخبرني عن واقعة أثرت به وبوعيه وبفهمه «للدولة»: «(...) بعيد دخول المقاتلين الجزائريين المنتصرين، والذين سيحلون محل جنود الجيش الاستعماري الفرنسي سنة 1962 خرجت- كان عمر علي 16 سنة- برفقة أبناء الحي والأصدقاء لاستقبال شاحنات جنود طلائع التحرير القادمين من تونس، لنحتفي بهم وبالنصر، وكنا نصفق ونهتف ونرقص أمام الشاحنات مما أعاق سرعة سيرها؛ الأمر الذى دفع بالثوار إلى النزول من الشاحنات والقيام بضرب الشباب، ودفعهم من أمام الشاحنات، وكان بعض الجنود الشباب يرددون «شبيبة بلا أخلاق».. ويضربونهم لأنهم كانوا يدخنون السجائر، والتي كانت تعبر عن ترهل أخلاقى في مخيال بعض الثوار في ذلك الحين... لقد كان لقائي الأول مع الدولة الوطنية يوماً تاريخياً لن أنساه ممزوجاً بين الفرحة والحزن، ففي اليوم الذي أصبح لدينا دولة بعد 131 سنة من الاستعمار، تقمعنا الدولة وتعطينا «طريحة» باللهجة الجزائرية (ضربة)» وقال لي بعد قهقهة طويلة. هكذا كانت علاقتي مع «الدولة». وأن الشباب الثائر الذي حرر البلد هو نفسه الذي ضرب علاقتي مع دولتي الوطنية»، ثم انطلق الكنز من تجربته الخاصة ليفتح التساؤلات السوسسيولوجية عن آليات احتكار العنف الشرعي والرمزي والمشروعاتي، وهكذا كان علي ينطلق دائما من التجربة الشخصية من المشاهدة من الملاحظة الى التأطير النظري، ويجعل من كل ملاحظةٍ أو معاينة في الميدان متحولةً إلى ميدان للتحليل السوسيولوجى.

سابعا: التفريق بين الزمن التاريخي والزمن الفيزيائي

احدى إسهاماته المعرفية والمنهجية المهمة هو تشخيصه للخلط بين الزمن التاريخي والزمن الفيزيائي، وعملية قياس الحقب الزمنية المختلفة بالمقياس المتعارف عليه مثل السنة او العقد، ناسين أن الزمن التاريخي هو في الحقيقة ماهية

تاريخية لها حسابها ومنطقها الخاص بها، ويختلف عن حساب الوقت الفيزيائي. وهو إذ يأخذ بهذه المنهجية يدعو الباحثين للنظر مثلاً في الظاهرة الاستعمارية لدولة الاستعمار الصهيوني؛ حيث برأيه إن بعض الحقب التاريخية سريعة وبعضها الآخر بطيء. (حول الازمة، 1990، 96) وهذه المقاربة تقودني إلى تحليله للوضعية الاستعمارية، حيث أن الكنز قد كتب مطولاً عن فرانز فانون، وفكرة استعادة الذات المستعمرة عبر المقاومة، وعن ماهية العنف في سياق استعماري/ مستعمري؛ وعن ابن خلدون و«ولع المغلوب بالغالب»، وعن مصطفى الاشرف وهو يكتب ببراعة عن تاريخ الجزائر. وكما هو معروف فقد كان علي من أهم مناصري القضية الفلسطينية، ومدافعاً عنها في المحافل الأكاديمية العالمية، وهو إذ يفعل كان يعقد المقارنات مع الحالة الاستعمارية الجزائرية والحالة الاستعمارية الفلسطينية، ويوضح أوجه التشابه وأوجه التقارب بين الحالتين.

ثامنا: عن الوضعية الاستعمارية والشرط الاستعماري

يفتح علي النقاش الضد استعماري بشكل دائم، ولكنه يفتح النقاش تحديداً حول الأطر التحليلية، ولقد استفاد الباحث من مقاربات علي الكنز عن الوضعية الاستعمارية والشرط الاستعماري، وخاصةً عندما كان الباحث يستخدم المقارنات مع الحالة الاستعمارية الجزائرية، وعرض أوجه التشابه والفروقات، ويفتح الأعين عن المقاربات بين صناعة الصنافات الاستعمارية، وأشكال المقاومة، والعلاقات المعقدة، وعلاقات القوة، وعلاقات المُستعمر والمستَعمر؛ وكنا عندما نناقش النموذج الاستعماري سواء من خلال أحاديثنا أو من خلال تعليقه على ما أكتب أثناء كتابتي لأطروحة الدكتوراة، وحتى مناقشاتي له في أبحاثي لاحقاً، كباحث أصلاني مستعمر مثقل بالشرط الاستعماري المشوه، كان يسألني هو عن فعالية الاستخدام المقارن منهجياً ومعرفياً، ونوعية التحليل لتوصيف هذا الاستعمار الاستيطاني الإحلالي، ويعقد لي مقارنات عن الحدود وفكرة الاقتلاع والسلب وتشويه الألقاب العائلية، وصناعية الصنافيات وفبركتها- بربر ضد عرب الخ.

وعند نقاشنا عن القابلية للاستعمار مفهوم مالك بن نبى كان علي يقول إن هذه الفكرة مرتبطة ببعض أشكال الاستلاب الثقافي، ولكن كيف يمكن تطبيقها

كنموذج تحليلي في مجتمع ما؟ خاصةً وأن هذا المجتمع- الجزائر- وإن خضع لمائة وثلاثين سنة من الاستعمار، فتاريخه يظهر بشكل جلي حدوث حالات مقاومة وثورات على امتداد الحضور الاستعماري، فكيف يصلح هذا في تحليل الحالة الاستعمارية المستعمرية؟ وكان يقول لي أنه لربما يمكن استخدام التحليل الخلدونى «ولع المغلوب بالغالب» عوضاً عن استخدام -القابلية للاستعمار- في السياق الاستعماري. وكان يردد دائماً التحليل السوسيوتاريخى للحالة الاستعمارية؛ يجعل لكل حالة استعمارية/ مستعمرية خصوصيةً في تشكل الشروط والآثار والمشاريع الاجتماعية الاقتصادية والسياسية لكل حالة.

مراجع:

باللغة العربية:

- الكنز علي، حول الأزمة: 5 دراسات حول الجزائر والعالم العربي، دار بوشنان، الجزائر، 1990.
- الكنز علي، المسألة النظرية والسياسة لعلم الاجتماع العربي في نحو علم اجتماع عربي، علم الاجتماع والمشكلات العربية الراهنة، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1986.

باللغة الفرنسية:

- El KenzA.,Écrits d'exil, 1993, 2008 …, Alger, Casbah Éditions, 2009.
- EL KENZ A.,(Pseudonyme BENHOURIA. T) - « L'économie de l'Algérie ». Maspéro, coll « Texte à l'appui ». Paris. 1980.
- EL KENZ. A., « Les maîtres penseurs. Notes de lecture ». Enal. Alger. 1985.
- EL KENZ. A., « Une expérience industrielle en Algérie : le complexe sidérurgique d'El Hadjar ». CNRS éditions. Paris 1987.
- EL KENZ. A.,ed. « L'Algérie et la modernité ». Codesria-Karthala. Dakar-Paris.1989.
- BENNOUNE. M., et ELKENZ. A., « Le hasard et l'histoire : entretiens avec ABDESSALAM Belaid ». Enag éditions. Alger. 1991. 2 volumes.
- El-Kenz, Ali (1993). Au fil de la crise, Alger, Éd. Bouchène/ENAL.
- EL KENZ. A. Et Roland Waast, co-ed « Sciences Techniques et Société » - Expériences au sud; Inde, Brésil, Vénézuela, Algérie. Ed. Enag-Alger.